الحياة الطيّبة
السنة ٢٠
العدد ٣٣
شتاء - ربيع ٢٠١٦م
أبحاث ودراسات

التّنمية الثّقافيّة في المجتمع الإنسانيّ
-قراءة في دور المؤسّسات الدّينيّة -

الشّيخ الدّكتور عليّ رضا بى‌نياز[1]

خلاصة:

تتناول هذه المقالة مسألة التنمية الثقافيّة في سياق مفهوم أدبيّات النموّ، بوصفها جوهر التنمية البشريّة، وضرورة واقعيّة ملحّة في واقع المجتمع الإنسانيّ؛ فالمجتمعات التي لا تنخرط في مشاريع التنمية الثقافيّة محكوم عليها بالتخلّف الثقافي، بل بالنكوص الثقافي.

وقد عالجت هذه المقالة مفهوم التنمية الثقافيّة ونشأته وتطوّراته ومحدّداته العامّة، ثمّ تعرّضت لأهدافها وغاياتها وأبعادها في المجتمع الإنسانيّ، لتخلص إلى بيان دور المؤسَّساتِ الدينيَّة في التنمية الثقافيّة، وأهمّيّة هذا الدّور وأبعاده وخصائصه، بالتركيز على مرحلة انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران بقيادة الإمام الخمينيّ قدس سره، وما أتاحته من فرصة للمؤسّسات الدينيّة في أداء دورها في عمليّة التنمية الثقافيّة.

مصطلحات مفتاحيّة:

التنمية الثقافيّة، التنمية البشريّة، أدبيّات النموّ، المؤسّسات الدينيّة، المجتمع، الحرّيّة، الاستقلال، التطوير، التعليم، القيم الروحيّة، القيم الأخلاقيّة، ...

(1) ممثّل جامعة المصطفى ﷺ العالميّة في لبنان، وباحث في الفكر الإسلامي من إيران.

مقدّمة:

تُعدّ التنمية الثقافيّة من المفاهيم الجديدة في أدبيّات النموّ؛ فالشائع في هذه الأدبيّات مفاهيم: التنميّة الاقتصاديّة، والتنمية الاجتماعيّة، والتنمية البشريّة...

وتُعدّ التنمية البشريّة أعمّ مفاهيم التنمية الرائجة، وتشكّل التنمية الثقافيّة جوهر هذه التنمية؛ فهي تقوم على عمل منظّم ومخطّط من أجل إحداث تغيير ثقافي، وما يستتبع ذلك من تغيير في الفكر والميول والسّلوك.

ومن هنا، تتجلّى أهمّيّة التنمية الثقافيّة في إحداث التبدّلات الضروريّة في البنى المادّيّة (العلوم، الصّناعات، الفنون)، والبنى المعنويّة (القيم، الأخلاق) لتقدّم المجتمع وازدهار الحياة؛ فالمجتمعات التي لا تنخرط في مشاريع «**التنمية الثقافيّة**» محكوم عليها بالتخلّف الثقافي، بل بأدهى وأمرّ من ذلك بـ «**النكوص الثقافي**»، وما ظهور الحركات التكفيريَّة التي تَمتهن القتلَ وتَرتكب الجريمة وتُمارس العنف باسم الدِّين في بلداننا، إلّا مصداقًا لهذا النكوص، غَفل أو تغافَل عنها القائمون على الشأن الثقافيِّ، ما يفرض العمل الجادَّ لمواجَهة هذه الموجة الظَّلاميّة عبر استراتيجيّةٍ في التنمية الثقافيّة، تُعيد تصحيح المسار، وتَحول دون تَفاقم المُعضِلات.

أوّلًا: مفهوم التنمية الثقافيّة:

أُطلق هذا المفهوم للمرّة الأولى سنة 1970م، وذلك في مؤتمر اليونيسكو الذي أكّد المجتمعون فيه على طبيعة العلاقة القائمة بين الثقافة والتنمية الاقتصاديّة والاجتماعيّة، وقد أشار المدير العامّ لليونيسكو إلى هذا الأمر في كلمته التي ألقاها في المؤتمر: «ابتداءً من اليوم، حتّى علماء الاقتصاد يُقرّون بأنّ التنمية إمّا أن تكون شاملة، وإمّا أن لا تكون، فلم يَعُد من باب

الصُّدفة أو الاستعارة أن نتكلّم عن التنمية الثقافيّة كعاملٍ مُهمٍّ من عوامل التنمية الشاملة»[1].

وقد طُرِحَت تعريفات عدّة للتنمية، لعلّ أهمّها ما صدر عن المؤتمر العالميّ للتربية، المنعقد في جنيف في أيلول سنة 1992م، وهو أنّ: «التنمية تعني في آنٍ معًا التطوّر، التغيّر في الحالة القائمة، التقدّم، الاغتناء والتفتّح، ولا تُقاس التنمية بازدياد الإنتاج كمًّا ونوعًا فحسب، بل -أيضًا- بالتحسُّن الذي تحمله إلى الإنسان وطريقة حياته»[2]. وبذلك أعطى المؤتمر تحديدًا للتنمية الثقافيّة؛ إذ عبّر عنها بأنّها اغتناءٌ بالثقافة، وتقويةٌ لأشكال التغيير الثقافيّ، وعمليّةٌ لنشر الثقافة عن طريق توفير الظروف المناسبة للإنتاج وللإبداع وتوفير الظروف لامتلاكها.

وعليه، إذا قبلنا خصوصيّة الثقافة بوصفها مجموعةً من القِيَم والعوامل المشترَكة التي تنتقل إرثًا من جيلٍ إلى جيل آخر، وأنّها تتمتّع ببُنيويّةٍ معقّدةٍ تتشكّل من أجزاء: العلم، والإيمان، والعقائد، والتقاليد، والآداب، وقاربنا التنمية بوصفها عمليّة تغيير للمجتمع ضمن سياق تصوّرٍ للوضع المرتجى، مع التأكيد على القضايا الإنسانيّة والاقتصاديّة؛ عندئذٍ يمكننا فهم التنمية الثقافيّة وفق المحدّدات الآتية:

- العقائد الدينيّة والقِيَم الروحيّة
- التعليم والتخطيط
- التقنيّة والتقانة الصناعيّة
- وسائل التواصل الجماعيّ

ثانيًا: أهداف التنمية الثقافيّة وغاياتها:

تَعدّدت النّظَريّات الوَضعيَّة في تحديد أهداف التنمية الثقافية وغاياتها، وهي تربط -غالبًا- بين التنمية والتحديث، وبالتالي الانخراط

(1) التنمية الثقافيّة (تجارب إقليميّة): لفيف من خبراء الأونيسكو، منشورات الأمم المتّحدة، 1982م، ص10.
(2) الحلبي، مطانيوس: «عن الثقافة والتنمية»، محاضرة في مجلس الفكر.

في المشروع الحضاري الغالب والمهيمن (المشروع الغربي)، وما تعصف به من فراغٍ نفسيٍّ وخواءٍ أخلاقيٍّ، أدَّيا إلى استفحال ظواهرَ مَرَضيّةٍ؛ كالانتحار والإدمان والقلق وحتّى التطرُّف، نتيجة الابتعاد عن الهدف الأسمى الذي أراده الله للإنسان، وهو القيام بدوره كخليفةٍ له في الأرض، يَعمُرُها بالخير والصلاح والإيمان والعمل الصّالح. يقول -تعالى-: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾[1].

وبالمقابل، فإنّ الرؤية الإسلاميّة لا تفصل الدين عن التنمية الثقافيّة، بل تَعُدّه روح هذه التنمية؛ ولأجل ذلك، كان الدور المركزيّ للمؤسّسات الدينيّة في ربط ثقافة المجتمع السائدة بالدِّين، وإضفاء الصِّبغة الرُّوحيّة عليها، وبثّ الرُّوح الإلهيَّة فيها، وضبط عقائد الناس وسُلوكيّاتهم وِفق أوامر الشَّرع، يصبُّ في روافد التنمية الثقافيّة بمختلف تشعّباتها.

إنّ الدين، بما يقدِّم من نظام حقوقيّ إنسانيّ وتعاليم أخلاقيّة وقِيَميّة، يمثّل منظومةً متقدّمةً لضبط الحراك المجتمعيّ، الأمر الذي يجعل منه أداةً فعّالةً يمكن لها الحيلولة دون بروز حالات الاستبداد وضياع حقوق المستضعفين. وما قِيَم المجتمع ومبادئه إلّا حصيلة معتقداته الدينيّة والروحيّة التي تشكّل عنصرًا أساسًا من عناصر الثقافة، وأكثر جوانب التنمية الثقافيّة تأثيرًا وجدوًى.

ويرى الإمام الخمينيّ قدس سره - من منطلق تجربته الدينيّة الجامعة التي استطاع من خلالها تقديم مشروع ثقافيّ تطبيقيّ على أساسٍ دينيٍ في الجمهوريّة الإسلامية الإيرانيّة، تَحَوَّل إلى أنموذج يُقتدى به على المستوى الإسلاميّ والعالميّ-أنّ أهداف التنمية الثقافيّة وغاياتها تتمثّل في الآتي:

- رفض التبعيّة
- تحقيق الاستقلال
- توفير السّعادة

(1) سورة طه، الآية 124.

- خلق الكرامة
- تعزيز القِيَم الإنسانيّة
- إصلاح المجتمع

وقد أرجع الإمام الخميني قدس سره جذور الهيمنة الغربيّة على مجتمعاتنا إلى البعد الثقافيّ، حيث قال: «... إنّ أهمّ مظاهر تبعيّة الشعوب المستضعفة للقوى الكبرى والمستكبرين، يتجسّد في تبعيّتها الفكريّة، والتي تشكّل أساسًا لكلّ مظاهر التبعيّة الأخرى، وما لم تحقّق الشعوب استقلاليّتها الفكريّة، فلن تبلغ استقلالها في الجوانب الأخرى... ولكي تنالوا استقلالكم الفكريّ وتتحرّروا من نير التبعيّة، عليكم بالتوجّه صوب مآثركم الوطنيّة والثقافيّة والاعتزاز بها. ويا لها من كارثةٍ! حين يعتقد شعبٌ ما بتفوّق الغرب في جميع المجالات، ولزوم استيراد كلّ شيءٍ منه»[1].

ثالثًا: أبعاد التنمية الثقافيّة:

إنّ التأمّل في التجارب الدينيّة الإلهيّة التي جسّدها الأنبياء والرسل والأولياء والمصلحون في المجتمع الإنسانيّ من خلال حركتهم الإصلاحيّة والتنمويّة، يضعنا أمام مجموعة من الأبعاد للتنمية الثقافيّة في المجتمع الإنسانيّ، يمكن إجمالها في الآتي:

1. مكافحة الجهل والأمّيّة:

لا يستقيم أمر التنمية الثقافيّة في مجتمع من المجتمعات، ما لم يتمتّع أفراده بالقدرة على القراءة والكتابة، ونقل تجاربهم، وبثّ أفكارهم، ونشر مشاعرهم بصورة مكتوبة؛ إذ لم تخلَّد الحضارات والأمم إلّا بالتُّراث المكتوب الذي خلَّفَته للأجيال اللاحقة.

(1) الخميني، روح الله: صحيفة النور، ج5، ص195.

ومن هذا المنطلق، كان اهتمام الإسلام ورسوله محمّد ﷺ بالعلم ونشره، أمراً لا يختلف عليه اثنان؛ إذ تكفي الإشارة إلى أنّ اسم الكتاب السماويّ لذلك الدِّين مشتقٌّ من مادّة القراءة[1]، ومعجزة رسوله ﷺ هو الكتاب، وأوّل آية نزلت منه افتُتِحت بقوله -تعالى-: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾[2]، وأقسم ربّ العزّة بالقلم في سورةٍ من كتابه حملت ذلك الاسم: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾[3]، فضلًا عن تحرير نبيّه ﷺ مجموعةً من أسرى الحرب لديه مقابلَ تعليم كلّ أسيرٍ منهم عشرةً من المسلمين[4]، ورفعه من مكانة العلماء والعاملين في الشأنَين الثقافيّ والفكريّ، حتّى فاقوا المجاهدين الذين يبذلون دماءهم وأرواحهم[5]، وبالتالي لا غرابة أن يزدهر العلم وتتطوّر صناعة الثقافة في مثل هذه الأجواء.

وفي خضمّ الحملات الشَّعواء التي يتعرّض لها الدين الإسلاميّ في هذه الأيّام، لا بدّ من العودة إلى تلك النماذج المضيئة من التاريخ الإسلاميّ، والقيام بعمليّة فرز شاملة تفصل بين الحقائق الدينيّة الراقية والنزعات المصلحيّة الضيّقة التي تستّرت بالدين، من خلال البناء على الأولى، وعدم التعويل على الثانية. وقد أشار الإمام الخميني قدس سره إلى تلك الحقيقة بقوله: «إنّ ممّا يدعو للخجل، أن يوجد شخصٌ أمّيٌّ في بلدٍ يُعَدّ مهدًا للعلم والأدب، ويتفيّأ تحت ظلّ تعاليم الإسلام الذي يَعتبر طلب العلم فريضةً»[6]، ويضيف: «ما دام البشر يعتمدون على السّلاح وسيلةً لاستمرار حياتهم، فلن يحقّقوا أهدافهم التي يتوخَّونها، ولن يبلغوا

(1) انظر: الأصفهاني، حسين (الراغب): مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان داوودي، قم المقدّسة، نشر طليعة النور، مطبعة سليمان زاده، 1427هـ.ق، ط2، مادّة «قرأ»، ص668.

(2) سورة الفلق، الآية 1.

(3) سورة القلم، الآية 1.

(4) انظر: السيرة الحلبيّة، ج2، ص193.

(5) انظر: ابن بابويه، محمّد بن عليّ (الصَّدوق): الأمالي، تحقيق ونشر: مؤسّسة البعثة، ط1، قم المقدّسة، 1417هـ.ق، المجلس 32، ح1، ص233.

(6) الخميني، صحيفة النور، م.س، ج1، ص273.

غاياتهم الإنسانيّة والتقدّم العلميّ والمعرفيّ إلّا بتغليب صرير القلم على أزيز الرصاص»[1].

2. الثقة بالنفس والاعتماد على الذات:

لا شكّ في أنّ تبعيّة النظام الشاهنشاهيّ البائد للقوى الأجنبيّة، كانت من العوامل المهمّة في قيام الإمام الخمينيّ قدس سره بثورته الظافرة؛ فقد كانت روحه الأبيّة تعاني الأمرَّين من مظاهر الخنوع والضعف والتيه والضياع والتغريب التي كانت تضرب بأطنابها في مفاصل المجتمع.

ومنعًا لأيّ التباس، لا بدّ من التأكيد على أهمّيّة التفاعل بين الثقافات والحضارات والأمم؛ فالتعرّف على الآخر والاستفادة من منجزاته الفكريّة والعلميّة والثقافيّة والصناعيّة، بما يرفع من سويّة المجتمع ويقرّبه من غاياته الأسمى من دون أن يؤدّي لهيمنة «**الآخر**» وتسلّطه، يُعدّ من الأمور المستحسنة، وقد دعا القرآن الكريم إلى ذلك بقوله -تعالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾[2].

وفي المقابل، تعمل قوى الهيمنة لفرض ثقافتها ومنظومتها الفكريّة على الشعوب الأخرى، وهي، في هذا السبيل، تثير تلك المجتمعات على تراثها وتقاليدها وقِيَمها الأصيلة. وقد عبّر الأديب الإيرانيّ المعروف جلال آل أحمد عن تلك العمليّة بالقول: «إنّ الحملات الاستعماريّة لا تستهدف نهب الموادّ الخامّ المعدنيّة والموادّ الناضجة البشريّة-نزيف العقول-في المستعمرات، بل تسعى لتدمير لغتها السائدة، آدابها، موسيقاها، أخلاقها ودينها أيضًا»[3].

ومن منطلق وعيه ومعرفته العميقة بأساليب الاستعمار، نبّه الإمام الخميني قدس سره من خطورة تلك المحاولات: «لقد بلغ تخويفُهم لشعوبنا

(1) الخميني، صحيفة النور، م.س، ج1، ص273.
(2) سورة الحجرات، الآية 13.
(3) الخميني، صحيفة النور، م.س، ج6، ص252.

من قدراتهم الشيطانيّة وتقدّمهم، مستوًى من التأثير أفقد تلك الشعوب الجرأة على المبادرة والابتكار، ما حدا بها للخنوع والاستسلام، ووضع مصيرها ومستقبلها تحت تصرّفهم، وهو ما أدّى لمحاولات تقليدهم بصورة عمياء، حتّى إنّهم يستعينون بزُمرةٍ من الكتّاب والمفكّرين المستغربين أو المستشرقين عديمي الثقافة لتحقير أيٍّ أدب أو ثقافة أو صناعة أو اختراع محلّيّ، ولقمع أيّ محاولة إبداعيّة، وبثّ روح اليأس، تمهيدًا لترويج تقاليدهم الغريبة في مجتمعاتنا، من خلال تمجيد كلّ عمل مبتذل؛ فيُطلقون لقب المفكّر والمثقّف على كلّ من يتشدّق بمصطلحاتهم الإفرنجيّة دون فهم معانيها، ويُضفون صبغة الحضارة والمدنيّة على من يستخدمها، ويرفضون أيّ تعبير محلّيّ أو وطنيّ بحجّة انتهاء صلاحيّتها»[1].

ومن هنا، تحتلّ الثقة بالنفس مكانةً خاصّةً في فكر الإمام قدس سره؛ حيث يرى تحقيق التقدّم رهينًا بها، فإذا تمّ فكّ لغز تلك المعضلة النفسيّة والفكريّة لدى الشعوب، عندئذٍ تكون قد خطَت أولى خطواتها نحو بلوغ الاكتفاء الذاتيّ والاستقلال، فالثقة بالنفس-كما يعبّر الإمام قدس سره-«مصدر الخيرات كلّها بعد الاعتماد على الله»[2].

3. الحرّيّة:

كما أنّ الحرّيّة السياسيّة والاجتماعيّة هي من نتاجات التنمية الثقافيّة، فهي-أيضًا-من عوامل تحقّقها وتعزيزها، فالحرّيّات الفرديّة والاجتماعيّة والسياسيّة، ومنها: حرّية الكتابة والتعبير، غير قابلة للتقييد، طالما أنّها لم تؤدِّ إلى إيذاء «**الآخر**»، وأنّها تمارَس في إطار القوانين والأنظمة النافذة في البلاد، وقد نصّ دستور الجمهوريّة الإسلاميّة على ذلك.

وقد كان الإمام الخمينيّ قدس سره يؤكّد على ضرورة مساهمة الشعب في

(1) الخميني، صحيفة النور، م.س، ج10، ص252.
(2) م.ن، ص55.

القرارات السياسيّة والاجتماعيّة، وتعزيز الحرّيّات التي تفجّر الطاقات والمواهب والإبداعات في سبيل تنمية المجتمع؛ سياسيًّا وثقافيًّا واقتصاديًّا.

رابعًا: دور المؤسَّسات الدينيَّة في التنمية الثقافيّة:

1. أهمّيّة دور المؤسّسات الدينيّة:

تتّضح أهمِّيّة المؤسَّسات الدينيَّة في عمليَّة التنمية الثقافيَّة، من خلال ربطها ثقافةَ المجتمع السائدة بالدِّين، وإضفاءِ الصِّبغة الرُّوحيَّة عليها، وبثِّ الرُّوح الإلهيَّة فيها، وضبط عقائد الناس وسُلوكيَّاتهم وفق أوامر الشرع.

وتتضاعف تلك الأهمِّيَّة في مجتمعاتنا الشَّرقيَّة بشكلٍ عامٍّ، والإسلاميَّة منها بشكلٍ خاصٍّ؛ إذ تَحظى شريحة رجال الدين والعلماء بمكانة خاصّة في نفوس الناس، الذين ينظرون إليهم؛ بوصفهم ملاذًا آمنًا عند الشدائد والمِحن والخطوب، ومُؤشِّرًا على سلامة الأُمَّة أو سُقمِها، وفي هذا الإطار نفهم لماذا عَدَّ الأديبُ الإيرانيّ الشهير جلال أحمد عمليّةَ إعدام الشهيد فضل الله النوري علامةً فاصلةً على تسلّط الغرب وفكرة التغريب على الأمّة.

ويمكن أن نفسّر خطاب الإمام الحسين عليه السلام، في سياق التأكيد على دور العلماء والنُخَب الدينيّة في التنمية الثقافيّة: «... **ثُمَّ أَنتم أيّها العِصابةُ! عصابةٌ بالعلم مشهورةٌ، وبالخير مذكورةٌ، وبالنصيحة معروفةٌ، وبالله في أَنفُسِ الناس لَكُم مَهابَةٌ، يَهَابُكُمُ الشَّريفُ، وَيُكرِمُكُمُ الضعيفُ، وَيُؤثِرُكُم مَن لا فَضلَ لَكُم عَلَيه وَلا يَدَ لَكُم عِندَهُ، تَشفَعُون في الحوائج إذا امتَنَعَت من طُلَّابها، وَتَمشونَ في الطريقِ بِهَيئَةِ المُلوكِ وَكَرامةِ الأَكابِرِ، أَلَيسَ كُلُّ ذلك إِنَّما نِلتُمُوهُ بِمَا يُرجَى عِندَكُم مِنَ القيامِ بِحَقِّ الله**»[1].

(1) الحرّانيّ، ابن شعبة: تُحَف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله، تحقيق: علي أكبر الغفّاري، ط2، قم المقدّسة، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، 1404هـ.ق/1363هـ.ش، ص237.

2. أبعاد دور المؤسّسات الدينيّة وخصائصه:

اكتَسبت المؤسَّسات الدينيَّة زَخَمًا كبيرًا في أعقاب انتصار الثورة الإسلاميّة المبارَكة في إيران بقيادة الإمام الخمينيّ قدس سره؛ حيث تَعزَّز موقعها ثقافيًّا وسياسيًّا؛ ففضلًا عن أدوارها التقليديّة، وهي أدوارٌ لا غنًى عنها عَبر التاريخ، كإمامة الجُمَع والجماعات وخُطَب الوعظ والإرشاد، أُنيطت بها مهامٌّ أخرى في مجالات العدل والأمن والدفاع ومختلف الوزارات والجهات التي تُمثِّل فيها الوليَّ الفقيه، كما سُجِّل حضورٌ لافتٌ للمؤسّسة الدينيّة في سِلك التعليم والتربية والتعليم العالي.

وقد فَرضت تلك التطوّرات المتَسارعة في ظلّ ضرورة التعامُل مع متطلّبات العصر الحديث، واقعًا جديدًا على المؤسّسة الدّينيّة؛ فقد تَحوَّل ميدان عملها من مُجرَّد تقديم إجاباتٍ لتساؤلات الأفراد والعمل لرفع شُبُهاتهم، إلى التعامُل مع المجتمع بكلِّ ما يحمل من تَطلُّعاتٍ ورؤًى وأفكارٍ وهواجس ومَخاضات، الأمرُ الذي حملها على طرح رؤيةٍ واضحةٍ للتغيير، تقوم على أُسُسٍ مُتعدّدة، يمكن أن نسوق بعضًا منها ممّا يرتبط بالبعد الاجتماعيّ، وهي وفق الآتي:

أ. تعميقُ الإحساسِ بالمسؤوليَّة:

عبر إدراك جانبها التشريفيِّ المتمثِّل بعَظَمة الرسالة الإلهيّة التي تحملُها المؤسّسة الدينية، ما يدفعها للقيام بواجبها على أكمل وجهٍ شكرًا لله على هذه النِّعمة، ووعي جانبها التكليفيِّ من خلال الاستعداد لبذل الغالي والنفيس في مواجَهة التَّحدِّيات والأخطار، ورفض كلِّ أشكال الخضوع والخُنوع. ولن تنجح المؤسّسة الدينيّة في أداء دورها في التنمية الثقافيّة إلّا إذا حقّقت هذا الوعي، وذاك الإدراك، وإلّا فإنّها ستكون في معرض الفشل والسقوط والتهاوي. وقد حذَّر الإمام الحسين عليه السلام العاملِين في السِّلك الدِّينيِّ من التَّخلّي عن أعباء تلك المسؤوليَّة لقاء مصالح آنيّةٍ ضيِّقةٍ، حيث قال: «**وَلَو صبرتم على الأذى وتَحمّلتُم المَؤونةَ**

في ذات الله، كانت أمورُ الله عليكم تَرِدُ، وَعَنكُم تَصدُرُ، وَإليكم تَرجِعُ، وَلكنَّكُم مَكَّنتُمُ الظَّلَمَةَ من مَنزِلَتِكُم، وَأَسلَمتُم أُمورَ الله في أيديهم، يَعمَلون بالشُّبُهات، وَيسيرون في الشَّهَوات، سَلَّطَهُم على ذلك فرارُكُم منَ الموت، وإعجابُكُم بالحياة التي هيَ مُفارِقَتُكُم، فَأَسلَمتُمُ الضُّعَفاءَ في أيديهم، فَمن بَينِ مُستَعبَدٍ مقهورٍ وَبَينَ مُستَضعَفٍ على مَعيشَتِه مَغلوب، يَتَقَلَّبونَ في المُلك بآرائهم، وَيَستَشعرون الخزيَ بأهوائهم، اقتداءً بالأشرار، وَجُرأَةً على الجَبَّار، في كُلِّ بَلَدٍ منهُم على منبَرِه خَطيبٌ مصقَعٌ، فالأرضُ لَهُم شاغرةٌ، وَأيديهم فيها مبسوطةٌ، وَالناسُ لَهُم خَوَلٌ لا يَدفَعون يَدَ لامس، فَمن بَين جَبَّارٍ عَنيد، وَذي سَطوَةٍ على الضَّعَفَةِ شديد، مُطاعٍ لا يَعرِفُ المُبدِئَ المُعيدَ»[1].

وفي عصرِنا الحديث، يمثّل الإمـام الخمينيّ قدس سره نموذجًا رائعًا للعالِم العامل الذي لم تَهُزُّه العواصف؛ ففي طول سيرة حياته، وبالرغم من التحدّيات الكثيرة التي واجهها، والمخاطر الجسيمة التي عرفها، لم يتسلّل الخوف إلى قلبه الطاهر الخالص لله -تعالى-، حيث يَنقل حجّة الإسلام قَرَهي القصّة التالية حول الليلة التي اعتُقل فيها الإمام ونُقل إثرها إلى طهرانَ: «حدَّثَني المرحوم الحاجّ مصطفى نجلُ الإمـام عن والده فقال: «بينما كانوا ينقُلونني في السيّارة في الطريق الواصلة بين قمّ وطهرانَ، أخذت أفكِّر في الموقف الذي أمرُّ به وما قد يؤول إليه، فلم أُحِسَّ بأيّ تغييرٍ طرأ على قلبي تجاه مواقفي. لذا، عندما خطب قدس سره في المسجد الأعظم بقمّ عَقِب الإفراج عنه في العام 1343هـ. ش، قال: واللّه! لم يعرف الخوفُ إلى قلبي طريقًا، حتّى في تلك الليلة التي اعتقلوني فيها، فبينما كان الخوف يقطّع قلوبهم، كنت أنا أهدِّئ من روعهم فكانوا هم الخائفين[2].

(1) الحرّانيّ، تُحَف العقول، م.س، ص237 .

(2) سرگذشتهاي ويژها زندگي امام خميني قدس سره (قصص خاصّة من حياة الإمام الخمينيّ)، ج1، ص23.

ب. التَّحلّي بروح المبادَرة:

يقوم النظام الإسلاميّ على نظام رِقابةٍ اجتماعيّة مُتَكامل، يُدعى «**الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكَر**»، يهدف للتعامُل العلاجيّ مع أيّ مخالَفةٍ أو تَعَدٍّ على القوانين الشرعيّة الناظمة. ولم يَكتفِ بذلك فحسب، بل دعا إلى المبادَرة الوِقائيّة من خلال السعي للقيام بخُطوات إصلاحيّة خلّاقة ونشر ثقافة الخير بين أفراد المجتمع، لقطع الطريق أمام محاوَلات زعزعة الاستقرار؛ يقول -تعالى-: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

وفي تجربة الإمام الخمينيّ قدس سره -أيضًا- تتجلّى روح المبادرة بأبهى صورها، بالرغم من مظاهر التحجّر والتّزهّد الخاوي في أوساط المؤسّسة الدينيّة، والتي تؤدّي لتوسيع الهُوّة بين النُّخَب الدينية والشعب الذي يُشَكِّل أساس كلّ تغيير؛ فنراه يدعو العلماء لكسر الجمود، والنزولِ من الأبراج العاجيَّة والتفاعلِ مع شرائح المجتمع كافّةً، قائلًا: «على الحوزات ورجال الدين المبادرةُ لتأمين حاجات المجتمع ومواكبة تحوُّلاته الفكرية، وتوقُّعُ الأحداث قبل وُقوعها، والاستعدادُ للتَّعامُل معها»[2].

ج. العمل على بناء كوادر مستقبليّة:

إنّ التنمية الثقافيّة عمليّةٌ مُستَدامةٌ، تمتدّ على مدى أجيالٍ، وتُواكبها تطوّراتٌ مختلفةٌ، وتُواجهها تحدِّياتٌ متنوّعةٌ، وبالتالي، فلا يمكنها أن تُرتهن بشخصٍ واحدٍ أو جهودٍ فَرديّة.

وبما أنّ المنظومة الفكرية للمؤسّسة الدينيّة تحمل مَخزونًا معرفيًّا واسعًا وتغطّي حقولًا في العقائد والكلام والفلسفة والتفسير والتاريخ وغيرها، وتنتقل من جيلٍ لآخر، وتفرض على كلِّ جيلٍ حفظَها لنقلها للجيل الآخَر، يصبح العمل على تربية كوادرَ مُتَخصِّصةٍ تحمل همَّ الرسالة

(1)سورة آل عمران، الآية 104.

(2)الموسوي الخميني، روح الله: الكلمات القصار للإمام الخميني قدس سره. إعداد ونشر: مؤسّسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخمينيّ قدس سره. لا.ط، قم المقدّسة، لا.ت، ص260.

وتسعى لتعزيزها والارتقاء بها بما يتناسب وتطوُّراتِ كلّ عصرٍ، من الأولويّات الأساسيّة للمؤسّسة الدينيّة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى قيام الرّسول الأكرم ﷺ بهذه المُهمّة، بقوله -تعالى-: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

ومن الدروس المهمّة لثورة الإمام الخمينيّ قدس سره، أنّه أعلنها في العام 1342هـ. ش، لكنّه لم يعلن انتصارها وعودتَه للبلاد من المنفى، إلّا بعد عمليّة تربية كوادرَ ثوريّةٍ استمرّت خمسة عشر عامًا، كانت مستعدّةً لمعاونته في إدارة شؤون البلاد.

د. ترسيخ العمل المؤسّساتيّ:

يتفاوت تأثير الثقافة، سلبًا أو إيجابًا، بحسب حجم الطَّيف الاجتماعيّ الذي يَتبعها؛ فإذا ترسّخت في مجتمعٍ ما ثقافةُ الولاء للقيادة والتزام أوامرها وتعاوَنَ أفرادُها لتحقيق توجُّهاتها، حقّق ذلك المجتمع النّصرَ على أعدائه بغَضِّ النّظَر عن أَحَقيّة شعاره. وقد أشار أميرُ المؤمنين عليه السلام إلى تلك الحقيقة معاتبًا أتباعه الذين تهاونوا في الالتزام بتعليماته في مواجهة معاوية وأتباعه: «**وَإِنِّي وَاللهِ لأَظُنُّ هؤُلاءِ القَوْمَ سَيُدَالُونَ مِنْكُم بِاجْتِماعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ، وَبِمَعْصِيَتِكُمْ إِمَامَكُمْ في الحَقِّ، وَطَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ في البَاطِلِ، وَبِأَدَائِهِمُ الأَمَانَةَ إِلَى صَاحِبِهِمْ وَخِيَانَتِكُمْ، وَبِصَلاحِهِمْ في بِلادِهِمْ وَفَسَادِكُمْ**»[2].

(1) سورة الفتح، الآية 29.

(2) محمّد بن الحسين بن موسى، العلوي (الشريف الرضي): نهج البلاغة (الجامع لخطب أمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام ورسائله وحِكمه)، شرح: محمّد عبده، ط1، قم المقدّسة، مطبعة النهضة، 1412هـ.ق، ج1، ص65.

من هنا، تنبُع أهمّيّة المؤسّسة الدينيّة باعتبارها من أقوى مؤسّسات المجتمع، نظرًا لشبكة المراكز التابعة لها، والتي تشمل المساجد والجوامع والحسينيّات والحوزات وغيرها، الأمرُ الذي يجعلها أحد أهمّ صمَّامات الأمان الاجتماعيّ، وعاملًا مؤثّرًا وموجِّهًا في كلّ هياكل الدولة ومراكز القرار في نظام الجمهوريّة الإسلاميّة.

خاتمة:

إنّ للتنمية الثقافيّة مفهومًا واسعًا وشاملًا يغطّي أبعاد الوجود الإنسانيّ كلّها، ولا يمكن لها أن تبلغ مداها إلّا بمقاربة ذلك الوجود من خلال التعامل معه؛ جسدًا وروحًا، إذ لكلٍّ منهما حاجاته التي ينبغي تلبيتها، من خلال الاهتمام بتهذيب النفس، وتعزيز القِيم الأخلاقيّة، والتقرّب إلى الله تعالى.

وتُشَكِّلُ الثقافة بدورها القاعدة الأساس للتنمية من جهة، وتمثّل هدفها ونتيجتها من جهة أخرى؛ فثقافة كلّ أمّة هي انعكاسٌ لهويّتها واستقلالها، والحفاظ على الاستقلال الثقافيّ والفكريّ لمجتمعٍ ما دليل على حياته، كما أنّ تدمير ثقافته وانحلالها علامة انحطاطه، فضلًا عن أنّ حضارة أيّ أمّةٍ ما هي إلا تجلٍّ لثقافتها ومعيار خلودها أو ضياعها؛ وبالتالي، فإنّ مهمّة صون الثقافة الوطنيّة والدينيّة، والارتقاء بها، وتنميتها، تقع على عاتق الشعوب وحكوماتها، ولا سيّما الجهات العاملة في الحقول الثقافيّة كالجامعات والمؤسّسات الدينيّة.

وبما أنّ التغيير من سنن الله في المجتمعات والأمم في مساراتها التاريخيّة والاجتماعيّة، فإنّ المؤسّسة الدينيّة غالبًا ما تكون المَعنيّة أوّلًا في التعامل معها، لتغلغُل قِيَمها في أعماق النفس البشريّة، إذ يلجأ إليها أفراد المجتمع لرفع التساؤلات بحثًا عن الاستقرار والسكينة.

ومع تطوّرات العصر وإيقاعاتها المتسارعة، أصبحت الثقافة حقًّا من

حقوق الإنسان، وأضحت التنمية الثقافيّة أحد مطالبه المُلِحّة.

ومن هذا المنطلق، تتعاظم أدوار المؤسّسة الدينيّة في هذه التنمية، كما بيّنّا ملامحها وفق التصوّر الإسلاميّ. فكيف نطوّر عمل هذه المؤسّسة حتّى تكون في مستوى هذا التحدّي؟ وكيف نرتقي بأفقها لتحسن استعادة دورها، كما حصل من خلال الحركة الرائدة للإمام الخميني قدس سره، والتجربة الحضاريّة الفذّة للجمهوريّة الإسلاميّة؟!

وتبعًا للآليّات التي تتّبعها تلك المؤسّسات مع التطوّرات المختلفة، ترتسم معالم مستقبل الأجيال القادمة بين السّعادة والشّقاء.